العربية تحمل في ذاتها نوعا إنسانية.. هي إسهام العرب في حضارة العالم

الأستاذ زكي الارسنوزي

احد المؤرخين الفرنسيين (ارنست دين) يقول في حديثه عن الوحدة الالمانية ان مصير اللغة يتبع المصير السياسي لمتكلميها ويضرب لنا مثلا بتناوب الناس في الاقبال على اللغة الالمانية او اللغة الفرنسية تبعا لمركز كل من المانيا وفرنسا السياسي في العالم ، وللعرب تجاربهم من هذا القبيل ، فلما بلغ المد العربي في غضون القرون الوسطى سهول فرنسا اصبحت ثقافة العرب منهل الشعوب الاوروبية واليك بعضا مما ورد في هذا الشأن على لسان احد ادباء ذلك العصر :

« يطرب اخواني المسيحيون لاشعار العرب وقصصهم ، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين ، لا لتنفيذها بل للحصول على اسلوب عربي صحيح رشيق ، فاين تجد اليوم علمانيا يقرا التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة، واين ذلك الذي يدرس الانجيل وكتب الانبياء والرسل ؟ وا اسفاه .. ان الشباب المسيحيين الذين هم من ابرز الناس مواهب ليسوا على علم من اي ادب ولا اية لغة غير العربية ، فهم يقراون كتب العربية ويدرسونها بلهفة وشغف ، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة ، وهم يترنمون في كل مكان بمدح تراث العرب وانك لتراهم من الناحية الاخرى يحتجون في زراية اذا ذكرت الكتب المسيحية بان تلك المؤلفات غير جديرة بالتفاهم فوا حر قلباه !.. لقد نسي المسيحيون لغتهم ولا يكاد يوجد منهم واحد في الالف قادر على انشاء رسالة الى صديق بلاتينية مستقيمة ولكن اذا استدعى الامر كتابة العربية فكم منهم من يستطيع ان يعبر عن نفسه في تلك اللغة باعظم ما يكون من الرشاقة . بل لقد يقرضون من الشعر ما يفوق في صحة نظمة شعر العرب انفسهم ـ الفارو » .

ولكن لما كرت اوروبا على العرب واحتلت فرنسا لبنان ارتفع صوت مماثل لصوت الفارو في الشكوى غير ان الشكوى في هذه المرة كانت من مدرس اللغة العربية على اهمال الناس لغة اجدادهم من اجل لغة الفاتحين (اللغة الفرنسية)

واذا كان مصير اللغة يتبع مصير متكلميها افلا تختلف اللغات بعضها عن بعض من حيث المقدرة على البيان وتشخيص المعنى ونقله حيا الى الاذهان ؟ في مجال المفاضلة بين لغة واخرى كمجموعة من الادوات. يقول المفكر الالماني هوستون شامبرلن : لو بقي «كانت» على لغة اجداده الانجليز ما كان بلغ ما بلغ من شاو في الفلسفة. وهو يستعمل اللغة الالمانية. واذا كانت شعوب اوروبا قد اتخذت اللغة اللاتينية لغة اساسية في تعليم الناشئة ، فان الاختيار لم يكن بتاثير الذكريات التاريخية (ذكريات روما القديمة) بل لان اللاتينية اصلح من لغات هذه الشعوب لايضاح المفاهيم الانسانية .

واما مقدرة اللسان العربي على البيان فقد استرعت انتباه كل من اولى عنايته دراسة لغة الضاد واليك بعضا من مأثور القول في هذا الشان :

« فاما ما نحن بصدده من ذكر اللغة العربية فلا نزاع في ميزتها على سائر اللغات وفضلها ، اما السعة فالامر فيها واضح ومن تتبع فيها جميع اللغات لم يجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية في كثرة الاسماء للمسمى الواحد ، على ان اللغة الرومية بالضد فان الاسم الواحد يوجد فيها للمسميات المختلفة كثيرا » (سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي) يضاف جمال الصوت الى ثروتها المدهشة في المترادفات (المزهر في علوم اللغة للسيوطي) نعم ان المعاني يمكن ان يعبر عنها باللغات الاجنبية ، ولكن العربية تستطيع ان تنقلها بدقة اكثر وايجاز اتم » . (المزهر) وتمتاز العربية بما ليس له ضريب من اليسر في استعمال المجاز ، وان ما بها من كنايات ومجازات واستعارات ليرفعها كثيرا فوق لغة بشرية اخرى .. ومثل هذا الحال يجعل الترجمة المرضية من العربية واليها امرا مستحيلا . وهي مع هذه السعة والكثرة اخصر اللغات في ايصال المعاني ، وفي النقل اليها يبين ذلك ان الصورة العربية لاي مثل هي اقصر في جميع الحالات فليس كلام ينقل الى لغة العرب الا ويجيء الثاني اوجز من الاول مع سلامة المعاني وبقائها على حالها .

ولقد ادهشت اللغة العربية بمقدرتها على البيان. يقول ابو داود المطران وهو عارف باللغتين العربية والسريانية: انه اذا نقل الالفاظ الحسنة الى السرياني قبحت وحسنت « واذا نقل الكلام المختار من السرياني الى العربي ازداد طلاوة وحسنا . ويقول الفارابي بصدد البيان في لغة الضاد . هذا اللسان كلام اهل الجنة وهو المنزه من بين الالسنة من كل نقيصة والمعلي من كل خسيسة والمهذب مما يستهجن او يستبشع وفضلا عن ذلك فان فصاحة العرب الفطرية عجيبة » .

ومع ما عليه مركز العرب السياسي اليوم من وهن فان الاستاذ هنري دوباستيه يكتب في جريدة (لوموند) عن رسالة اللغة العربية نحو الثقافة الانسانية :

« ان اللغة العربية التي نبتت في الصحراء ، حيث يشخص النظر في كل ليلة نحو السماء المتلالئة بالنجوم ، ان تلك اللغة بمحتواها الانساني والالهي ، توجه الذهن نحو السمو ، نحو المثل الاعلى ، نحو المطلق . وهكذا فان اللغة العربية تحمل في ذاتها نزعة انسانية كانت نزعة المسيح والتي لا تستطيع لغاتنا البربرية البتة ان تعبر عنها بوجه من الوجوه وهي تشكل اسهام العرب في حضارة العالم . وهذه اللغة هي كنز العرب .

ونحن الاحفاد ، يحق لنا ان نضيف راينا في مزايا اللسان العربي الى آراء السابقين في هذا المضمار ولاسيما اذا كان هذا الراي يفسر لنا سر تفوق هذا اللسان على غيره من اللغات . فنحن نرى ان اللسان العربي اقوى من اللغات الاخرى في توضيح المفهومات الانسانية بمثابة حسن الرؤية من حواس الجسد . ومزية اللسان العربي هذه ترجع الى الخيال المرن المتضمن في الكلمة والخيال المرن او الصورة هذه تبرز من ثنايا البنية الاشتقاقية للكلمة العربية كظهور صورة الاشراق في معنى كلمة « ذكاء » المتضمنة صورة ذكاء الشمس . ولقد مثلت ذات مرة الكلمة العربية بين شقائقها في الاسرة بمصباح في ثريا يزداد معناها تألقا بتجاوبه مع معاني شقائقه في الاسرة . كما مثلتها مرة اخرى بنغمة في انشودة من حيث اثارتها للانفعالات العميقة في تشخيص المعنى وتحقيقه .

فالى م يرجع امر مزايا اللسان العربي هذه ؟ ترجع هذه المزايا الى نشأة لساننا البدائية والانسجام بين المحسوس والمعقول بين المسميات الحسية وبين المعاني المجردة كما ترجع الى الانسجام بين المضمون وبين العبارة ، اي بين المعنى المتضمن في العبارة نفسها . ظل اللسان العربي امتدادا لعبارة الهيجان الطبيعية وتجسيدا لها . الاخ والاخوة والاخاء هي امتداد لعبارة آخ عبارة التوجع الطبيعية . واذا اضيف الى صوت الهيجان اصوات اخرى كالاصوات المستحدثة في الفم (بت الحاصلة من تقاطع اللسان بالنطع ومنها . بتر والباتر واذا اضيفت الاصوات المقتبسة من الطبيعة الخارجية كصوت خرير الماء ومنها خرب وخر ؟

واذا تجمع ذلك كله فان الحياة تنمو فى تطورها بالاستناد الى الايقاع والى حسن الرؤية المتصفة بالوضوح والدقة .

فالى نشأة كل من الكلمات العربية من صوت طبيعي يرجع الانسجام بين المحسوس والمعقول . كلمتا ذكاء ـ الشمس والذكاء فى النفس يرجعان الى صوت ذلك وتكون الشرارة الى حالة من الدلك صورة حسية للاشراقة (الذكاء) فى النفس . وكذلك الكلمتان شريعة وشارع ترجعان الى صوت شر والشارع تعريف بالمحسوس للشريعة كمجموعة قواعد يسلك عليها الناس فى علاقاتهم بعضهم مع بعض .

وليس البيان فى اللسان العربي بالمجاز فحسب بل هناك البيان الصوتي ايضا . معلوم ان اللسان امتداد صوتي لعبارة الهيجان التى تجسد الشعور وتشرك بتجسيدها اياه الآخرين . واليك مثالا عن هذا المعنى فى لساننا عن الاعراب .

حركة الفتح تعبر عن معنى الركون الحاصل من ركون اللسان عند خروج الصوت وتعد الذهن فى المفعول والفعل الماضي الى المشاركة فى هذا المعنى . وحركة الضمة الحاصلة من تدافع الصوت تعبر عن الفعالية وتعد الذهن للمشاركة فى معنى الفعالية فى الفاعل وفى الفعل المضارع .

ذلك هو اللسان العربي يمثل الحياة فى صعودها نحو الحق والحقيقة .

الإسلام ولغة القرآن
في نظر الجامعة السورية

تلقينا من وزارة خارجية الجمهورية العربية السورية اجوبة جامعة دمشق وجامعة حلب ومديرية البحوث ، بوزراءالتربية عن الاستفتاء الذى نظمه المكتب الدائم للتعريب فى العام الماضي حول « علاقة الاسلام باللغة العربية » وقد وصلتنا هذه الابحاث بعد ان اصبح العدد السادس من مجلة « اللسان العربي » جاهزا للطبع فارجأناها الى هذا العدد معتذرين :

لا ريب ان هناك قدرا من التلازم بين الاسلام واللغة العربية ، بمعنى ان الاسلام كلما ارتفع شانه وشاعت احكامه ازداد معه شان اللغة العربية قوة ورفعة وانتشارا ، وان اللغة العربية كلما ارتفع شانها وتوسع انتشارها او ازدادت درجة التعمق فيها والدراسة لعلومها ، ازداد بذلك امر الاسلام ظهورا واصبح السبيل الفكري اليه اشد جلاء واستقامة ووضوحا .

وكيف لا يكون اشتداد الوازع الاسلامي اعظم سبيل الى قوة اللغة العربية والمزيد من انتشارها ، وان الاقبال على تعلمها انما يكتسب اذ ذاك معنى التعبد لله عز وجل والعكوف على فهم دينه واحكامه .

وقد فرغ الفقهاء من بيان انه يجب على المسلم ان يتعلم من اللغة العربية ما يبصره بحكم الله عز وجل فى كتابه وسنة رسوله ما لا غنى له عنه، وفى ذلك يقول الامام الشافعي رحمه الله فى كتابه « الرسالة » :

(فعلى كل مسلم ان يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد به ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وامر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك ، ومهما ازداد من العلم باللسان الذى جعله الله لسان من ختم به نبوته وانزل به آخر كتبه ، كان خيرا له) .

غير انه لا ينبغي ان يكون خافيا فى هذا الصدد ، ان مرد هذا التلازم انما هو نزول القرءان بلغة العرب ، فلولا ان الله عز وجل اقتضت حكمته اختيار هذه اللغة ترجمانا لكلامه وتعبيرا عن خطابه لكان شانها كشان اي لغة اخرى بل ولنشا التلازم الذى ذكرنا بين الاسلام واللغة الاخرى التى كانت الحكمة الالهية تختارها .

ومن هنا نعلم انه لا يمكننا ان نقول بحال : انه لولا ان اللغة العربية هي لغة القرءان لما انتشر الاسلام .

والواقع التاريخي الذى يبدأ من عصر البعثة النبوية الى يومنا هذا ، اعظم دليل وبرهان على واقع هذا التلازم الذى ذكرناه ، وفيما يتعلق بواقع بيئتنا السورية خاصة ، فان مما هو مشاهد ومعروف عندنا لكل احد انه عندما كانت البرامج التعليمية عندنا فى المدارس الابتدائية والثانوية تعني كثيرا بتدريس

القرءان والعلوم الدينية ، كانت الملكة العربية لدى الطلاب فى غاية القوة والاشراق وكانوا من اجل ذلك يهضمون فى دراستهم العربية منهاجا زاخرا بالعمق والقوة، فلما قلت العناية اخيرا بالقرءان ودراسته وما يحف به من العلوم الدينية التى تبث الوازع الديني فى النفوس وتشد من ازره ضعفت الملكة العربية لدى الطلاب ضعفا بينا وخطيرا ، واصبح منهاج الدراسة العربية ، رغم ضآلته الشديدة بالنسبة للمنهاج القديم عقبة كاداء فى طريق الطالب لا يكاد يجتازها الا زحفا وجرا .. هذا بالرغم من حشد كل ما قد يظن انه ضمانة لتقوية الطلاب فى هذه المادة، فى النظام الدراسي العام، من مثل الاكثار من الساعات الدراسية ، واشتراط المزيد من الدرجات للنجاح فيها وما الى ذلك .

ولا ريب ان من نتيجة التلازم الذى ذكرناه ، ما هو واضح لكل متامل من تاثر الوازع الديني والوحي الاسلامي بما يعتري اللغة العربية من قوة او ضعف .

ونحن هنا لا بد ان نفرق بين العاطفة الاسلامية ، والوحي الاسلامي، فاماالعاطفة، فلعل التلازم بينهاوبين اللغة ضئيل ، ومرد ذلك الى ان للاسلام فى مجموعه سلطانا على الفطرة الانسانية اذا خلي وشانها ، فالفطرة تنقاد وتتاثر بالاسلام كعقيدة وايمان دون اي حاجة الى وساطة لغة ، اما الوحي الاسلامي وما يتبعه من الوازع الديني الصحيح ، فان منافذه الى الفكر والعقل لا يكون الا فى طريق اللغة العربية .

ان بلدة اسلامية كتركيا مثلا ، لا يعدم معظم اهلها عاطفة دينية متاججة رغم جهل عامتهم باللغة العربية ، ولكنهم لا يركنون اطلاقا الى اي ركن شديد من الوحي الاسلامي الذى هو وحده الذى يقدر أن يحمي افكارهم الدينية من اي تلبيس او خداع ديني قد يتسلل اليهم .

ومن اجل ذلك ملاحظة ان الكيد التبشيري ضد الاسلام انما يستهدف تلك المناطق الاسلامية التى توجد فيها حرارة عاطفية نحو الدين ، ولكنها تعيش قاصية عن الوحي الاسلامي بسبب انحباسها فى سجن العجمة وانسداد المنافذ التى توصل افكار اهلها بحقيقة الاحكام الاسلامية وما تنطوي عليه من منهج وتنظيم

اما فيما يتعلق بمدى تاثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرءان فى اللهجات او اللغات الاقليمية فى الاقطار الاسلامية ، فان الامر يختلف بالنظر الى اختلاف التاريخ .

ففيما مضى ، وحينما كان سلطان الاسلام منبسطا على نفوس الشعوب الاسلامية وسلطانها الحاكمة معا ، كان تاثير الاسلام على اللهجات واللغات الاقليمية تاثيرا عظيما وكليا ، ولا يجهل احد ان معظم البلاد العربية اليوم انما كان اهلها اخلاطا من الاعاجم المختلفين ، ولا يجهل احد أن التاريخ القديم والقريب يملأ اذهاننا بأمم من الاكراد والاتراك والفرس والشركس والهنود تجردوا عن خصائصهم اللغوية ، وصقلت السنتهم اللغة العربية بتاثير منالفكر الاسلامي الذى سيطر على نفوسهم .

اما اليوم فمن المؤسف ان نقول : ان التاثير الاسلامي فى اللغات الاقليمية او اللهجات المحلية لم يعد قويا كما كان ، ذلك ان سلطان الاسلام قد انحسر مده ولم يعد يتجلى الا فى نفوس الشعوب الاسلامية كشعوب ، وهذا القدر لا يكفي لظهور اثر الاسلام ولغة قرءانه على اللغات الاقليمية او اللهجات العربية المختلفة .

ان اللهجة الاقليمية التى تشيع فى تعابير اقليمنا السوري ، ليست من اللهجات البعيدة عن اللغة العربية الاصيلة ، ومن ثم فان تاثيرها على اللغة العربية تاثير جزئي ولا ريب أن يضعف ويقوى حسب اختلاف التاثير الديني قوة وضعفا .

ومع ان هنالك لهجة عربية اقليمية لدينا ، فان اللغة العربية الاصيلة ، هي وحدها اللغة العلمية واللغة الدراسية فى شتى مراحل التعليم الابتدائي والثانوي والجامعي ، ومهما كانت العلوم التى تدرس فان الاداة التعبيرية عنها هي اللغة العربية وحدها .

اما اللغات الاجنبية ، فشانها كشان المواد الدراسية التى يتلقاها الطالب فى المدرسة قصدا الى تتميم مقوماته الثقافية وتسهيلا لوسائل الترجمة والتعريب .

الإسلام عز العروبة

الأستاذ درويش العلواني

وزير الدولة والاوقاف سابقا
(دمشـــق)

يظن بعض ذوي التفكير السطحي ان القومية لا تكمل الا اذا ابتعدت عن الدين وكانها شيء فوق الاديان او لا صلة لها بها ، وما عرفوا ان القومية العربية بصورة خاصة لا تستطيع الابتعاد عن الاسلام ولا عما جاء به كما لا تستطيع اللغة العربية ان تكون ذات شان بعيدة عن القرءان الكريم . واننا لا نستطيع ان ندرس التاريخ العربي بعيدا عن الواقع الاسلامي والحضارة الاسلامية .

ويظن آخرون ان الاسلام كائن مستقل عن العرب والعروبة وانه دين فقط كغيره من الاديان السماوية لاعلاقة له بمنشئه ولا بالامة التى خرج منها صاحب رسالته ولذا يرون ان القومية العربية ضد الاسلام وانه بالتالي يجب ان يحاربوا هذه الفكرة الدخيلة .

كلا الطرفين مغال فى نظرته بعيد عن الصواب لان العرب المسلمين لا يقرون العصبية العنصرية تمشيا مع هدي رسول الله الذى يقول : «ليست العربية لاحدكم من اب ولا من ام ، وانما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي » .. وكان يقول : « سلمان منا ءال البيت » .. رغم انه فارسي . كما دعا المسلمين الى حب العرب اذ قال : « احبوا العرب لثلاث : لانني عربي والقرءان عربي ولسان اهل الجنة فى الجنة عربي ».

ففي اواخر القرن السادس للميلاد كانت القوتان المتقابلتان المسيحية والمجوسية تحيطان بشبه جزيرة العرب وظلت ارض العرب واحة حصينة آمنة من الغزو الى حد ما الا من بعض اطرافها ، وكان لموقعها وطبيعتها الجغرافية اثر فى حماية اهلها وفى تكوين طباعهم ومزاياهم ، فقد حصنتهم البحار المحيطة من ثلاث جهات والصحراء من الجهة الرابعة من تغلغل الاعاجم ونفوذ الدولتين الكبيرتين اذ ذاك : دولة الفرس ودولة الروم وجعلتهم يعتزون بالحرية ويفخرون بالاباء والشمم ويباهون بالحمية والنجدة والكرم والوفاء مما طبع العربي على خصائص وميزات ظلت ترافقه زمنا طويلا .. وكانت سببا فى اثارة الغيرة والحقد لدى العناصر الاعجمية التى ابت ان تقر لهم بميزة او فضل ولو ظهر الاسلام فى بلادهم وكان القرءان عربيا وصاحب الرسالة من اشرف بطن فى العرب ومن خير ولد آدم وكان خيارا من خيار .

لم تكن هناك مناطق زراعية الا فى اليمن وبعض الواحات التى تصل اليها الاودية حاملة بعض الماء عقب الامطار العارضة والنادرة والمفاجئة او بعض العيون والينابيع القليلة فى اكناف الجبال العالية او القريبة من البحر . كما لم تكن هناك صناعة تذكر الا